دراسةٌ نقديّةٌ في كتاب التصميم العظيم

هاشم الضيقة*

الخلاصة

الإلحاد من الآفــات الّتي تأباهــا الفطرة الإنســانيّة والمنطق العقــليّ، وإنّها لظاهــرةٌ متجــذّرةٌ في تاريخ البشريّــة، قد بدأت تســتشري في الآونة الأخيرة في بعض الدول الغربيّــة لتنتقل العدوى إلى بلادِنا الإســلاميّة، فكان لا بدّ من قول كلمــةٍ عميقةٍ وعلميّةٍ في وجــه هٰذا المرض الفكريّ، من هنــا كتبت هٰذه القراءة النقديّة لكتاب (التصميم العظيم)، إذ بدأت بتصنيفه بحســب أســباب الإلحاد، ثمّ بيّنت مفاصل الكتاب بخلاصةٍ ســلّطت الضــوء خلالها على مكامن النقد، من خــلال منهجٍ عقليٍّ وعلميٍّ، وبعــد ذٰلك تناولت النقد من جهــاتٍ ثلاثٍ: نظريّة المعرفة وعلم الفلســفة وعلــم الفيزياء، وختمــت ببيان مســيرة البحث وأهمّ

(*) هاشــم الضيقة، لبنان، الســطح الثالث في قســم الفقه والمعارف الإســلامية، جامعة المصطفى العالمية.

victorious.nation2@gmail.com

الخلاصات والنتائج.

الكلمـات المفتاحيّـة: هوكينج، العلوم الطبيعيّـة، التصميم، الإلٰه، الإلحاد، الظواهر.

A critical read of the book: The Grand Design

Hashim al-Dhayqah

Summary

Atheism is among the problems rejected by human nature and rational logic. It is a phenomenon rooted in the history of mankind, and has recently begun to spread in some Western countries and also contagiously moving into Muslim countries. It is indeed incumbent to present sound and scientific studies in the face of this intellectual disease. This is a critical look at the book "The Grand Design", which I have classified it according to the causes of atheism, and then, in short, I shed light on the points to be criticized, with an intellectual and scientific approach. After that, I dealt with the criticism from three angles: epistemology, philosophy, and physics. At the end, I mentioned the course of the study, some important conclusions, and the results of the study.

تمهيدٌ

حين انكشفت السـاحة الإسلاميّة غزت بلادنا شـلّالاتٌ من المبادئ والتيّارات الفكريّة الغربيّـة والشرقيّة، وتعدّ التيّارات الإلحاديّة واللادينيّة من أمّهات الأمراض الخبيثة الّتي ما برحـت تتسرّب إلى مجتمعاتنا، بدوافع وأسبابٍ مختلفةٍ، فتظهر تارةً بدوافع تجريبيّةٍ مرتبطةٍ بالعلوم الطبيعيّة تخالها يقينيّةً! وأخرى تصطبُغ بصبغةٍ فلسفيّةٍ مرتبطةٍ بالعلوم العقليّة تظنّها واجبة القبول، وأنّها انطلقت من مبادئ فكريّةٍ صائبةٍ.

وثالثـةً تكـون نتيجـةً لانفعـالاتٍ نفسـيّةٍ لا يصـحّ الاعتمـاد عليهـا في مقـام اتّخـاذ موقـفٍ فكـريٍّ أو رؤيـةٍ عن الكون؛ لعدم امتلاكها في نفسها المسوّغ المعرفيّ الضامن لصحّتها وصوابها.

وما نحن بصدد مناقشته هو كتاب (التصميم العظيم) للفيزيائيّ المعروف سـتيفن هوكينج (Hawking Stephen)(*)، وليونـارد ملودينوو (Leonard Mlodinow)(**)، الّذي يعدّ حلقةً من مسلسـل الدعوة إلى الإلحاد بدافِعه الأوّل، أي المرتبـط بالعلـوم الطبيعيّة، وبالفيزيـاء على نحو الخصوص، ويصنُّف هٰذا الكتاب بالإضافة إلى ما ألّفه الأحيائيّ ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins)(***) «وهم الإلٰه» وهو من أشـهر ما صنّف في الإلحاد في أوسـاط الطبيعيّين المعاصرين.

(*) ستيفن هوكينج: عمل أسـتاذًا للرياضيات في جامعة كامريدج لمدة ثلاثين عامًا، وحصل على عددٍ كبيرٍ من الجوائز، له كتبٌ منها: «تاريخٌ موجزٌ للزمن» و«الكون في قشرة جوزٍ» ومجموعةٌ من المقالات. [راجع: هوكينج، التصميم العظيم، ص 223]

(**) ليونـاردو ملودينوو: عالم فيزياء في جامعة كالتاك، وله العديد من المؤلّفات، يعيش في ولاية كاليفورنيا. [راجع: المصدر السابق]

(***) ريتشارد دوكنز: عالم أحياءٍ جزيئيّةٍ، ولد في كينيا ويعمل لأكثر من جهةٍ منها جامعة أكسفورد البريطانيّة، وهو يقّدم نفسه على أنّه ملحدٌ. [راجع: دوكنز ، ريتشارد، وهم الإلٰه، ص 2]

بعد مسيرةٍ من العطاءِ العلميّ، والمصنّفات القيّمة ككتاب «تاريخٌ موجزٌ للزمن» خرج ستيفن هوكينج إلى الساحة العالميّة وبرز اسُمه من خلال كتاب (التصميم العظيم) الناسخ لبعِض الأفكار الواردة في كتابه المتقدّم كواحدٍ من المبشّرين بالإلحاد باللغة العلميّة! مع أنّ هناك العديد من العلماء الكبار حتّى الطبيعيّين قد أنكروا عليه بعض المقدّمات واستغربوها، فضلًا عن النتائج الّتي آل إليها كما سيوافيك، من قبيل ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) وجون لينكس (John Lennox)(*) وجون بولينجهورن (Jhon Polkinghorne)(**) وفرانك كلوز (Frank Close)(***).

فهل يا تُرى نجح أحد أشهر الفيزيائيّين المعاصرين بآلته العلميّة في إثبات عدم وجود قوّةٍ ماورائيّةٍ أخرجت العالم من العدم والظلمة إلى حيّز الوجود والنور؟! وهل كانت أجوبته على الأسئلة المرتبطة بالرؤية الكونيّة متّسقةً علميًّا؟ أو أنّه خبط خبط عشواء عندما تدخّل في قضايا لا تنالُها آلتُه التجريبيّة؟

هٰذا ما سنتعرّف إليه من خلال هٰذه القراءة النقديّة لكتاب (التصميم العظيم).

قبل أن نشرع في القسم الأوّل، لا بدّ أن أنبّه القارئ العزيز على أمرٍ بالغ الأهمّيّة وينفع كدستور في الحياة العلمية: «الهراء يبقى هراءً، حتّى لو

(*) جون لينكس: عالم رياضيّاتٍ في جامعة أكسفورد، وعالمٌ في فلسفة العلم، وهو متخصّصٌ في نقد الإلحاد الجديد، له العديد من المؤلّفات. [راجع: أقوى براهين د. جون لينوكس في تنفيد مغالطات منكري الدين، جمعه وعلّق عليه أحمد حسن، المقدّمة تحت عنوان هٰذا الكتاب]

(**) جون بوليكنجهورن: عالم فيزياءٍ نظريّةٍ ومفكر ديني وكاتب، كان أستاذًا للفيزياء الرياضيّة في جامعة كمبريدج.

(***) فرانك كلوز: هو فيزيائي، وكاتب غير روائي، وأستاذ جامعي، وعالم أدار جامعة أكسفورد.

صدر من مشـــاهير العلماء»(*). لذا لا بدّ من النظر والتأمّل في الكلام نفسه وإخضاعه للموازيـــن العلميّة والمنطقيّة بمعزلٍ عن هالةٍ قائله، خصوصًا أنّ البعض يحاول الاستفادة من صيت العلوم الطبيعيّة لترويج تخميناته.

أوّلًا: جولةٌ في كتاب (التصميم العظيم)

صدرت الترجمـــة العربيّة للكتاب عام 2013 بثمانيـــة فصولٍ موزعةٍ على مئتين واثنين وعشرين صفحةً.

مع الصفحة الأولى من الكتاب يرســـم المؤلّـــف النتيجة الّتي تفوح منها رائحة إنـــكار الفاعل الموجد، وقـــال: «إنّ للكون تصميمًـــا، وكذٰلك هٰذا الكتاب، لٰكن على خـــلاف الكون، فإنّ الكتاب لا يظهر تلقائيًّا من العدم. فالكتاب يحتاج إلى خالقٍ» [هوكينج، التصميم العظيم، ص 7].

يصدر المؤلّف الفصل الأوّل المعنون بـ «لغز الوجود» بأسئلةٍ محوريّةٍ: كيف يتـــصرّف الكون؟ ما حقيقة الواقع؟ من أيـــن أتى كلّ ذٰلك؟ هل الكون بحاجةٍ لخالقٍ؟ ثمّ يعلن زاعمًا موت الفلســـفة الّتي كانت تجيب عن هٰذه الأســـئلة، ويســـند مهمّة الإجابة إلى علماء الطبيعيّات، فإنّهم المعنيّون اليوم بالإجابة على حدّ قوله.

وفي ذيل هٰذا الفصل يذكر هدف الكتاب وهو تقديم الإجابة الّتي تفرضها الاكتشافات العصريّة، ويسأل: هل سيصل اليوم الّذي تبيّن فيه نظريّةٌ نهائيّةٌ تفسّر كلّ شيءٍ؟ ثمّ يقول: لا يوجد إجابةٌ محدّدةٌ، لٰكن هناك نظريّةٌ مرشّـــحةٌ وهي نظريّـــة «إم» المؤلّفـــة من عدّة نظريّاتٍ، والّتي تحـــدّث عنها الكاتب في فصولٍ لاحقةٍ.

(*) عبارةٌ حكيمةٌ منســـوبةٌ لجـــون لينكس في كتاب (أقوى براهين د. جـــون لينكس في تنفيد مغالطات منكري الدين) لأحمد حسن، ص 101.

وأمّا في الفصل الثاني الّذي يحمل عنوان «سيادة القانون»، يقول إنّ إرجاع أفعال الطبيعة إلى الآلهة لم يكن إلّا لعدم معرفة أسبابها، فإنّ للكون سيّدًا ألا وهو القوانين، والطبيعة محكومةٌ بها. فيظهر من عبارات هٰذا الفصل أنّ المصنّف يعتقد بقضيّةٍ مفادها: كلّما تطوّر العلم وفسّر الظواهر قلّت أو انتفت الحاجة إلى الإلٰه.

وأمّا الفصل الثالث فقد حمل عنوان «ما الواقع؟» وقد أكثر الكاتب من الأمثلة ليقول: إنّ كلّ النظريّات أو النماذج المقترحة لتفسير الواقع هي ناجحةٌ في بعض الجوانب وغير ناجحةٍ في جوانب أخرى كتلك الّتي طرحها بطليموس(*) ونيوتن(**) وغيرهما؛ وعليه فإنّ أيّ نظريّةٍ أو فرضيّةٍ تطرح لتفسير الواقع سيكون تفسيرها تقريبيًّا وليس واقعيًّا بالكامل. وبعد ذٰلك يعرض الكاتب لمعايير تمييز النموذج المناسب من غيره، كالأناقة والاحتواء على عددٍ أقلّ من العناصر القابلة للتعديل، واتّفاقه مع الملاحظات التجريبيّة، والقدر على تقديم تنبّؤاتٍ مستقبليّةٍ.

وأمّا الفصل الرابع فقد تناول الكاتب فيه مبدأً جديدًا في «نظريّة الكوانتم» (Quantum Theory) وهو «التواريخ البديلة» (Alternative Histories)، يبدأ الفصل بعرض تجربة «شقّي يونج» المشهورة، حيث تطلق الإلكترونات على لوحةٍ ذات شقّين خلفها لوحٌ حسّاسٌ، لتظهر نتيجةٌ غير مألوفةٍ [للتوّسع راجع كتاب القوى الأربع الأساسيّة في الكون لبول ديفيز، ص 66 تحت عنوان: الطبيعة الغريبة لحقيقة الكمّ]؛ إذ إنّ كلّ إلكترونٍ كان يسلك من كلا الشقّين معًا وفي آنٍ واحدٍ!

ثمّ يذكر مبدأً مهمًّا في فيزياء الكمّ وهو مبدأ الشكّ (اللاحتميَّة)؛ ليرتّب

(*) كلوديوس بطليموس: رياضي وعالم فلك من القرن الثاني الميلادي.

(**) إسحاق نيوتن: عالم رياضيّات وفيزياء مشهور جدًّا له العديد من النظريّات.

على ذٰلك كلّه استنتاجًا فلسفيًّا مفاده عدم خضوع الطبيعة لنظام عللٍ وأسبابٍ حتميَّةٍ وثابتةٍ، بنحوٍ تكون معرفتنا بالعِلَّة موجبةً لعلمٍ حتميٍّ بالمعلول.

في الفصل الخامس الموسوم بـ «نظريَّة كلّ شيءٍ» قسَّم قوى الطبيعة بحسب التقسيم المدرسيّ إلى أربعٍ: الجاذبيَّة، والكهرومغناطيسيَّة، والنوويَّة الضعيفة، والنوويَّة القويَّة، ثمّ أردف قائلًا: إنَّ العلماء قد فكَّروا في نظريَّة «كلّ شيءٍ» الّتي توحِّد الفئات الأربع في قانونٍ واحدٍ، يتوافق مع نظريَّة الكمّ، وقد استفاض في هٰذا الفصل في الحديث حول الجمع بين هٰذه القوى، ليقول في النهاية: «إنَّ الأمل الرئيسيّ لدى علماء الفيزياء في إنتاج نظريّةٍ واحدةٍ، تقوم بتفسير القوانين الظاهريَّة كنتيجةٍ فريدةٍ محتملةٍ لعددٍ قليلٍ من الافتراضات، رُبَّما يجب التخلِّي عنه. أين يتركنا ذٰلك؟ إذا سمحت النظريَّة ـ «أم» بوجود 10 أُس 500 مجموعةٍ من القوانين الظاهريَّة، فكيف سيكون مآلنا في هٰذا الكون بتلك القوانين الظاهريَّة لنا؟ وماذا عن تلك العوالم الأخرى المحتملة» [هوكينج، التصميم العظيم، ص 146 و147]

في الفصل السادس «اختيار كوننا» يبدأ في بيان المستند النظريّ للنتيجة الّتي يرومها، والّتي تشكِّل الإجابة عن الأسئلة الّتي صدَّر بها الكتاب؛ لماذا يوجد الكون؟ ولم هو بهٰذه الهيئة؟

يمهِّد للإجابة بعرضٍ مختَصَرٍ عن تاريخ نشوء الكون، يذكر خلاله ما اكتشفه العلماء من توسُّعه السريع، الّذي يلازمه أن يكون الكون قد انطلق من نقطةٍ، كان منها الانفجار العظيم.

من المسائل المهمّة الّتي أحرجت العالِم الفيزيائيّ (هوكينج) في مسيرته التفسيريّة لنشأة الكون هي مسألة بدايته الزمانيَّة، فهو يزعم عدم وجود الفاعل؛ وذٰلك من خلال طريقين:

الأوّل: نــفي البداية الزمانيَّة للكون، فــإنّ تخلّصه من اللحظة الزمانيّة الّتي يدّعى نشوء الكون فيها، يسّــهل عليه خَطْبُ نفي الفاعل المُوجِد. أمّا كيف نفى الكاتب زمن البداية؟ فبقــوله: إنَّ الزمان عند بداية الكون كان بعــدًا مكانيًّا رابعًا بالإضافة إلى الطول والعرض والارتفاع، وسُــمِّيت هٰذه الأبعــاد بـ «الزمان»، وعلى هٰــذا الافتراض يكون الكاتــب قد تخلَّص من بُعد الزمان، فانتفت جدوائيَّة الســؤال عن الزمان الّذي نشــأ فيه الكون وانطلــق منــه: «إنَّ إدراك أنَّ الزمن يتصرَّف كاتّجاهٍ آخــر للمكان يعني أنَّ المرء يمكنه التخلُّص من مشــكلة أنَّ الزمن له بدايةٌ» [المصدر السابق، ص 164 و165]، وهٰكذا تفقد فرضيَّة الفاعل جدوائيَّتها. يقول: «على مدار قرونٍ فإنَّ الكثيرين ومنهم أرسطو، اعتقدوا أنَّ الكون يجب أن يكون موجودًا دائمًا؛ ليتجنَّبوا موضوع كيف تمَّ إنشــاؤه. وقد اعتقد آخــرون أنَّ للكون بداية واســتخدموا ذٰلك كحجّة على وجود الله. إنَّ إدراك أنَّ الزمن يتصرَّف مثل المكان يقــدِّم بديلًا جديدًا، فهو يزيل الاعتراض القديم بأنَّ للكون بدايةً» [هوكينج، التصميم العظيم، ص 165].

الثاني: ســيادة القوانين، حيث إنَّ بداية الكــون كانت محكومةً بقوانين قد تقدَّمت الإشــارة إليها، وبالتالي فإنَّ الطبيعة غنيّــةٌ بقوانينها عن الإلٰه في وجودها. قال: «لٰكنَّه يعني أيضًــا أنَّ بداية الكون كانت محكومةً بقوانين العلم، وأنَّ الكون ليس بحاجةٍ للانطلاق بمعرفة إلٰه ما» [المصدر السابق]

ثمّ يذكر مشــيرًا إلى التفســير الكموميّ لبداية الكون: «إذا كانت بداية الكون حدثًا كموميًّا، فيجب أن تُوصَف بدقَّة بواســطة محصَّلة فاينمان عبر التواريخ... ولقد رأينا... جُسَــيمات المادَّة الّتي يتمُّ إطلاقها على شاشــةٍ ذات فتحتين، قد تظهر شــكل تداخلٍ... وقد أوضح فاينمان... أنَّه أثناء تحرّكه من

النطقة (أ) إلى النقطة (ب) فإنَّه لا يتّخذ مســـارًا واحدًا محَّددًا، وبالتالي فإنَّه يتَّخذ بالتزامن كلَّ مســـارٍ يحتمل أن يصل بين هاتـــين النقطتين، ومن جهة النظر تلك فإنّ التداخل لا يثير الدهشة؛ لأنّ الجُسَيم على سبيل المثال يمكنه الانتقال خلال تلك الفتحتين في الوقت نفســـه، وأن يتداخل مع نفســـه» [المصدر السابق ، ص166].

ونســـتعين بما ذكره في كتاب «تاريخ أكثر إيجازًا للزمن»: «فإنّ ميكانيكا الكمّ تُقدّم عنصرًا لا يمكن إغفاله للعشوائيّة» [هوكينج وليونارد ملودينوو، تاريخ أكثر إيجازًا للزمن، ص 101]. ولٰكن لن نقول كما قال أينشـــتاين: «إنّ الربّ لا يلعب النرد»، بل نتأمّل ألا ينبغي أن تُوجَد الأشـــياء في الرُّتبة السابقة؛ كي تتصرّف بعشوائيَّةٍ فيما بعدُ؟ وعند ذٰلك من حقّ أيٍّ منّا أن يسأل مَن المُوجِد؟

وفي الفصل الســـابع «المعجزة الظاهريَّة» يبيِّن الكاتـــب الجوانب المُميّزة لكوننا، الّتي جعلته صالحًا لنشوء الحياة على كوكب الأرض، فإنّه وبعد سرده لجوانـــب الإبداع الكونيّ يذهب إلى فرضيّةٍ مغايـــرةٍ لفرضيّة الإلٰه والمُصمِّم الذكيّ! وهي فرضيّة «تعدُّد الأكوان» أو ما يُسمِّيه بعنوانٍ عامٍّ «التصميم العظيم».

هٰذا وقد شـــكّك في بعض الرؤى الكونيَّة الدينيَّة، الّتي تفسِّر مبدأ الكون بوجـــود الإلٰه والمُصمِّم الذكيّ. ثُمَّ عكف على الحديث حول نظريّة «إم» مدّعيًا أنَّها نموذجٌ مُرشَّحٌ لتفسير كلِّ شيءٍ!

وأمَّا الفصل الأخير ـ الّذي حمل عنوان الكتاب «التصميم العظيم» ـ فقد لخّص فيه الإجابات المقترَحة على الأســـئلة الأساسيّة الّتي صدّر بها الكتاب: لماذا يوجد هناك شيءٌ بدلًا من لا شيءٍ؟ لماذا نحن موجودون؟ لماذا توجد هٰذه المجموعة من القوانين العلميّة بدلًا من غيرها؟

يدّعي (هوكينج) أنَّ الإجابة عن هٰذه الأسـئلة ليس بالضرورة أن تكون بفرض وجود إلٰهٍ، خصوصًا أنَّه سـينقلب السؤال: من خلق الإلٰه؟ وكأنّ هٰذا يشكّل تحدّيًا أمام الكاتب مع أنَّه سهل المؤونة فلسفيًّا.

واختصارًا للكلام، وتجنّبًا للإسهاب؛ ننقل هٰذا المقطع من كتابه، والّذي يلخِّص إجابته على الأسئلة:

«فإنَّ الكـون يمكنه أن يخلق نفسـه من لا شيء، وسـوف يفعل ذٰلك بالطريقة الّتي تمَّ وصفها في الفصل السادس، والخلق التلقائيّ هو السبب في أنَّ هناك شـيئًا من اللاشيء، فلماذا يوجد الكون؟ ولماذا نوجد نحن؟ وليس من الضروريّ أن نستحضر إلٰهًا لإشعال فتيل الخلق، ولضبط استمرار الكون» [هوكينج، التصميم العظيم، ص 216].

لعلَّه قد خطـر في بالك أيُّها القارئ للوهلة الأولى سـؤالٌ تتوجّه به إلى الكاتـب: ما هو الشيء الّذي يجعل الكون يُوجَـد تلقائيًّا من اللاشيء؟ وقد أجاب عنه في هٰـذا الفصل بأنَّ الجاذبيَّة أمرٌ مهمٌّ في فرضيَّة إيجاد الكون كلِّه من اللاشيء بشكلٍ تلقائيٍّ. قال: «لأنَّ هناك قانونًا مثل الجاذبيَّة، فإنَّ الكون يمكنه أن يخلِق نفسه من لا شيء وسوف يفعل ذٰلك ...» [المصدر السابق].

إذن اتّضـح ممّا تقدّم بيانُه باختصارٍ لمحتويات كتاب «التَّصميم العظيم» في هٰذه الإطلالة السريعة، أهمّ ما فيه.

ويجدر بنا نقلُ الكلام إلى القسم الثاني الّذي يشكّل عمدة المقالة «القراءة النقديّـة»، حيثُ سنسـلط الضوء على مكامن الخلط والخطـإ في المقدّمات والنتائج الّتي طرحها الكاتب.

ثانيًا: القراءة النقديّة

1 ـ النقد المعرفيّ (مناقشةٌ في المنهج وآلة البحث من زاوية نظريّة المعرفة)

أرى من الضروريّ هنا بيان بعض المغالطات في هذه القراءة وضمن النقاط التالية:

أ ـ الخلط بين المنهج العقليّ والمنهج التجريبيّ

من أهمّ الأبحاث الّتي يتناولها علم المعرفة (Epistemology) بالتحقيق هي الأدوات المعرفيّة، حيث تُنقَّح فيه الأدوات الّتي يمكن الاستناد إليها في الكشف عن الواقع، ويُحدَّد حقل إدراكها وقيمة كلِّ واحدةٍ منها. وبناءً على تعدُّد هٰذه الأدوات انقسمت المناهج وتعدَّدت، فنشأ المنهج التجريبيّ والمنهج العقليّ.

اعتمد المنهج العقليّ التجريبيّ الّذي تأخذ به العلوم الفيزيائيَّة والأحيائيَّة والكيميائيَّة على التجربة أداةً حصريَّةً في الكشف عن الواقع، وتفسير الظواهر، واعتبرها المصدر الأوّل لجميع المعارف.

وقد ذكر أرباب هٰذا العلم أنّ نطاق هٰذه الآلة ودائرة هٰذا المنهج المحسوسات فقط، وهو عاجزٌ عن تخطّي الظواهر المادّيَّة، ولا سلطان له على ما وراءها.

وأمّا المنهج العقليّ فقد اعتمد على العقل القياسيّ البرهانيّ في الكشف عن الواقع، والتعرُّف على الظواهر، وهو يعتمد على من لديه أهليَّة دراسة العلل البعيدة وبعض الأمور الميتافيزيقيَّة.

يقول أنطوني فلو (Antony Flew) (*) مشيرًا للثنائيَّة النطاقيَّة بين البحثين

(*) أنطوني فلو: فيلسوفٌ بريطانيٌّ، له العديد من المؤلَّفات، وأكثرها حول فلسفة الأديان، كان طول حياته ملحدًا، وألّف كتبًا لنفي وجود الإله، ولٰكنَّه في أواخر حياته عدل عن إلحاده، وألّف كتابًا نسخ فيه كلَّ كتبه السابقة وأسماه (هناك إلهٌ). [راجع: المصري، نهاية حلم وهم الإله، ص 63].

التجريبيّ والعقليّ: «فعند دراسة التفاعل بين اثنين من الأجسام المادّيَّة، على سبيل المثال، أو اثنين من الجُسَيمات ما دون الذرَّة، فإنَّك تتحدَّث في العلوم، وعندما تسأل كيف وُجِدت تلك الجُسَيمات ما دون الذرَّة أو أيّ شيءٍ مادّيٍّ ـ ولماذا؟ فأنت تتحدّث في الفلسفة، وعندما تستخرج استنتاجاتٍ فلسفيَّةً من البيانات العلميَّة، فأنت عندئذٍ تفكِّر كفيلسوفٍ» [المصري، نهاية حلم وهم الإله، ص 62، وقد اقتبسه من كتاب: There is a God, p115].

وفي ذٰلك يقول الدكتور عمرو شريف(*)في كتابه «رحلة عقل»(**): «فالفيلسوف هو الّذي يخرج من المعلومات العلميّة باستنتاجاتٍ معرفيَّةٍ، وربّما لا يعرف الكثيرون من علماء الأحياء عن هٰذه الاستنتاجات، أكثر ممّا يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد الّتي تتحكم بالبورصة وقوانين السوق الحرَّة» [شريف، رحلة عقل، ص 76].

واللافت أنّ السيّد هوكينج نفسه ـ في كتابه «تاريخٌ مُوجَزٌ للزَّمَن» المتقدِّم على «التصميم العظيم» ـ قد أشار إلى هٰذه الحقيقة المبيّنة في علم المعرفة؛ قال: «وحتّى الآن فإنّ معظم العلماء كانوا مشغولين جدًّا بإنشاء نظريّاتٍ جديدةٍ تُوصِف «ما هو الكون» بحيث لم يسألوا عن «لماذا». وعلى الجانب الآخر، فإنّ الأفراد الّذين كانت مهمَّتُهم أن يسألوا «لماذا»؛ أي أنَّ الفلاسفة لم يتمكّنوا من ملاحقة تقدّم النظريّات العلميَّة» [هوكينج، تاريخٌ موجزٌ للزمن، ص 150]. وكذا أشار في كتاب «التّصميم العظيم» لهٰذا المعنى قبل زعمه موت الفلسفة، فراجع. [هوكينج، التصميم العظيم، ص 13]

(*) عمرو شريف: أستاذٌ مصريٌّ، وطبيبٌ، ورئيس قسم الجراحة في كلّيّة الطبِّ في جامعة عين شمس، مع تخصّصه الدقيق في جراحة الكبد، له العديد من المؤلّفات. [راجع: شريف، عمرو، رحلة عقل، ص 287]

(**) رحلة عقل: هٰكذا يقود العلم أشرف الملاحدة إلى الإيمان، ألَّف الدكتور عمرو شريف هٰذا الكتاب، عن الملحد أنطوني فلو الّذي عدل عن إلحاده في أواخر حياته.

إذن فإنّ طبيعة السؤال المطروح تحدّد طبيعة الإجابة، ولكلِّ إجابةٍ آلةٌ وأسلوبٌ معنِيٌّ بتقديمها. وبعبارة أخرى: إنّ طبيعة الموضوع هي الّتي تشخِّص آلة بحثه وأسلوبه؛ فلو كانت الظاهرة المبحوث عنها ظاهرةً ميتافيزيقيَّةً، أو تتناول العِلَل البعيدة فإنّ العالِم يلتمسُ الأسلوب الفلسفيّ العقليّ في تقديم الإجابات والتفسيرات؛ أو يمكن الإتيان بالمجرَّدات إلى المختبر لتفسيرها.

نعم، لو كانت الظاهرة مادّيَّةً حسّيَّةً يمكن اختبارها، فلا بدّ من التسلُّح بالتجربة في مقام معالجتها، كما لا يمكن التغافل عن الاستفادة من بعض المقدِّمات التجريبيَّة في البحث الفلسفيّ العقليّ، أو الأخذ بها كأصولٍ موضوعةٍ.

يقول السير بيتر مدوّر (Peter Medawar) (*): «إلاّ أنّ محدوديَّة العلم تتّضح في عجزه عن إجابته عن الأسئلة البدائيَّة الّتي تتعلَّق بالأشياء الأولى والأخيرة، مثل: كيف بدأ كلُّ شيء؟ ما غرض وجودنا؟ ما مغزى الحياة؟»

[لينكس، العلم ووجود الله، ص53].

لقد كانت أولى السَّقطات المدويَّة للكتاب أنَّه استخدم الفيزياء المعتمِدَة على التجربة في بحثه عن العِلل البعيدة، وتفسيره لظواهر ميتافيزيقيَّةٍ، وإجابته على أسئلة «لماذا»، وتدخّله في إثباتها أو نفيها، مع العلم أنّه لا بدّ أن تكون الفيزياء ساكتةً عن مثل هٰذه القضايا، وفي المواضع الّتي تحتاج إلى استنتاجاتٍ فلسفيّةٍ كان الكاتب يواجه الإخفاق؛ ذٰلك لأنّه لا باعَ له في هٰذا الحقل من العلوم.

(*) بيتر مدور: طبيبٌ بريطانيٌّ مشهورٌ من أصلٍ لبنانيٍّ، حصل على جائزة نوبل في الطبِّ لعام 1960.

ولَعمري إنّ الّذي يريد تفسير الظواهر الميتافيزيقيَّة، أو الحكم عليها بالوجود والعدم من خلال علم الفيزياء، كمن يريدُ أن يسمع بعينه، أو يبصر بإذنه؛ فلا يمكن لعاقلٍ أن يتصوَّر النتائج الّتي سينتهي إليها المُحيط بمطالَب نظريَّة المعرفة، فهو يعي تمامًا حاكميَّة القوانين العقليَّة على استنتاجات الطبيعيّ؛ فإنَّ الفيزيائيّ عندما يريد أن يستنتج نموذجًا ما من تجربةٍ ما، عليه أن يراعي عدم لزوم خُلف أحد القوانين العقليَّة الثابتة: قانون التناقض، قانون الهويَّة، قانون العلّيَّة، وإلا فسينتهي إلى استنتاجات لا منطقيَّة، كما أنّ طعنه بهٰذه القوانين سينجرُّ إلى كليّاته الّتي يخرج بها من خلال التجربة.

ب. ثبت موت هوكينج ولم يثبت موت الفلسفة

قال الكاتب: «... كانت تلك الأسئلة التقليديَّة للفلسفة، لكن الفلسفة قد ماتت .. وأصبح العلماء هم مَن يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب عن المعرفة» [هوكينج، التصميم العظيم، ص13].

ويمكن القول إنّ الكاتب كان ملتفتًا لدائرتَي البحث الفلسفيّ والبحث التجريبيّ؛ لذا نراه يكرِّر المسألة نفسها في أهمِّ كتبه، ثُمَّ يزعم في كتابه الأخير موتها دون أن يقدّم دليلًا أو برهانًا، أو حتّى تجربةً على الأقلّ تثبتُ للقارئ هٰذه الدعوى! لينفذ من ذٰلك مباشرةً إلى البحث التجريبيّ متسلِّلًا.

وقد ثبت لك ـ أيُّها القارئ ـ أنَّ التجربة لا تفلح في تفسير الظواهر الميتافيزيقيَّة.

ومن المحتَمَل أن يكون الكاتب في دعواه هٰذه مقلِّدًا لما قدّمته كلٌّ من المدرستين الوضعيّة والماركسيّة وأتباعُ المذاهب التجريبيّة، وقد أُتخِمَتْ كتب

علماء الإســـلام ـ المصنَّفَة في نظريَّة المعرفة خصوصًـــا ـ تفنيدًا ونقدًا لهٰذه المدارس؛ لذا نُعرِض عن تكرار ما سطَّرته أقلامُهم(*).

تعتمد الفلســـفة في معالجتها للظواهر على الأســـلوب العقـــليّ البرهانيّ، وتكتســـب حياتها من حجّيَّة هٰذا المنهج المســـتفاد من «الخصائص الذاتيَّة للبرهـــان، المؤلَّف من الصورة البدهيَّـــة الإنتاج، والمـــادّة الواجب قبولها» [المصري، أصول المعرفة والمنهج العقليّ، ص 144].

ثمّ إنَّ التجريبيَّ نفســـه لا يمكنه أن يخرج بنتيجةٍ دون الاســـتفادة من القياس البرهانيّ، الّذي يقوم على أساسه الأسلوب العقليُّ والفلسفة؛ فلو مات هٰذا المنهج لما قام للتجربة قائمةٌ؛ باعتبار أنَّ النتيجة المســـتفاد منها تنهض على مقدِّمتين مجتمعتين: الأولى حِسّيَّة، والأخرى عقليَّةٌ.

من هنا نقول لهوكينج: إنَ الفلســـفة لا تزال حيَّةً تُرزَق، وتستمدُّ وجودها من المنهج العقليّ الّذي لولاه لَما وصل التجريبيُّ إلى نتيجةٍ.

وعلى أيِّ حـــال لا بدَّ أن نرجع هوكينج خطوةً إلى الوراء، ونســـأله : ما هو دليلك الفيزيائيُّ على موت الفلسفة؟

ج. الصبغة الميتافيزيقيَّة

إذا بحثنا عن آراء علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء فيما يتعلَّق بالقضايا الوجودية المرتبطة بالإله، أو يوم الجزاء، أو أيّ عنصر من عناصر الرؤية الكونيَّة لوجدناهم يختلفون فيما بينهم إثباتًا ونفيًا وتوقُّفًا ... فكلٌّ يدَّعي أنَّ المقدمات العلميَّة الّتي يتّكئ عليها تفيد الاســـتنتاج الّذي يعتقد به، وهٰذا على الأقل

(*) . يمكن مراجعة كتاب «فلسفتنا» للســـيد محمدباقر الصدر و«الأيديولوجيا المقارنة» للشيخ مصباح يزدي.

يُعَدُّ شـــاهدًا على أنَّ النتائج الّتي ينتهي إليها الطبيعيُّ في هٰذا الحقل الميتافيزقيّ ليست نتائج تجربةً حتميَّةً، ولا معادلةً رياضيَّةً، وإنَّما هي مجرَّد استنتاجاتٍ وتخميناتٍ، وغالبًا ما تكون مصطبغة بالموقف النفسيّ الميتافيزيقيّ المُســبَق الّذي يتّخذه العالِم الطبيعيُّ حول عناصر الرؤية الكونيَّة(*).

وهٰذا الأحيائيُّ والكيميائيُّ كريستيان دو دوف(**)يقول: «... إلّا أنَّ الكثير من العلماء لا يشغلون أنفسهم بهٰذا الفارق، فيتعاملون ضِمنًا مع الفرضيَّة على أنَّها حقيقةٌ مؤكَّدةٌ، وهم سعداء جدًّا بما يقدّمه العلم من تفسيرات. وهم في ذٰلك مثل لا بلاس، لا يحتاجون إلى فرضيَّة الله، ويعتبرون الموقف العلميَّ لا أدريًّــا، إن لم يكن إلحاديًّا صريحًا». ويعلِّق عالِم الرياضيات جون لينكس على هٰذا المقطع: «وهٰذا اعتراف صريــح أنَّ العِلم عند الكثيرين لا ينفصل فعليًّا عن موقفٍ ميتافيزيقيٍّ لا أدريٍّ، أو إلحاديٍّ يصرُّ أصحابه على التمسُّك به...» [لينكس، العلم ووجود الله، ص 59].

ولعلَّ أرنو بنزياس (Penzias Arno)(***) محقٌّ في قوله: «البعض لا يشعرون بارتياحٍ لفكرة العالــم المخلوق بقصدٍ. وحتّى يأتوا بأفــكارٍ مضادّةٍ للقصد، يضطرُّون لتخمين أشياء لم يروها» [لينكس، العلم ووجود الله، ص 130].

إذن فإنّ الاســتنتاجات الّتي يخرج بهــا الطبيعيُّ تكون في بعض الأحيان مصطبغــةً بموقفــه الميتافيزيقيّ المُســبَق. ويتبنَّى هوكينج نظرةً مشــابهةً: «الكثيرون لا يحبّون الفكرة الّتي تقول: إنّ الزمن له بدايةٌ؛ غالبًا من أجل أنّه يدلُّ بوضوحٍ على التدخّل الإلٰهيّ» [المصدر السابق، ص 117].

(*) الإنسان، الإله، الكون.

(**) كريستسان دو دوف: عالِم متخصِّص في علم الأحياء الخلوي والكيمياء الحيويَّة.

(***) أرنو بنزياس: عالم فيزياء أمريكي مشــهور، وله بعض الاكتشافات، حائز على جائزة نوبل للفيزياء عام 1978 م .

والأنكى من ذٰلك حين يقوم الطبيعيُّ بحياكة قناعٍ علميٍّ؛ لرؤيةٍ فلسفيّةٍ ماديّةٍ إلحاديّةٍ، مال إليها أو أُعجب بها.

2 ـ النقد الفلسفيّ (مناقشة في بعض الملازمات والاستنتاجات)

أ- نفيُ البداية الزّمانيَّة لا يلازمه انتفاء دور الخالق

يقول هوكينج في إشارةٍ إلى احتماليّة انتفاء دور الخالق في حال انتفاء البداية الزمانيّة للكون: «وطالما اعتقدنا أنّ للخلق بدايةً؛ فإنّ دور الخالق يبدو واضحًا هنا، أمّا إذا كان الكون بالفعل مغلقًا على نفسه (أي مكتفيًا بنفسه بشكلٍ كاملٍ)، وليس له حدودٌ أو حوافٍ، وليس له بدايةٌ أو نهايةٌ، فإنّ الإجابة ليست واضحةً: ما هو دور الخالق؟!» [هوكينج، تاريخٌ أكثر إيجازًا للزمن، ص 111].

في هٰذا الكلام يظهر جانبٌ من الضعف الفلسفيّ لدى عالِم الفيزياء؛ حيثُ إنّ العديد من العلماء والحكماء الكبار على مرّ التّاريخ كانوا يعتقدون بأزليّة العالَم وقِدَمه، ومع ذٰلك آمنوا بوجود الإلٰه، وِفقًا لأدلَّةٍ عقليَّةٍ فلسفيَّةٍ مُحكمَةٍ، ليس محلُّ بسطها في هٰذه المقالة.

فأرسطوطاليس يؤمن بأزليّة المادّة ومع ذٰلك يؤمن بوجود الإلٰه الصانع كما أشار الكاتب [هوكينج، التصميم العظيم، ص 165] ـ وكذٰلك يُنسَب هٰذا القول إلى العديد من الفلاسفة المشّائين.

قال الشهرستانيّ: «وإنّما القول بِقِدَم العالَم وأزليَّة الحركات بعد إثبات الصانع، والقول بالعِلَّة الأولى إنَّما ظهر بعد أرسطاطاليس ... وأبدع هٰذه المقالة على قياساتٍ» [الأحمدي، وجود العالَم بعد العدم عند الإماميّة، ص 25 و26].

وكذلك ابن رشدٍ في كتابه «تهافت التّهافت» حيثُ أقام أدلَّةً أربعةً على قِدم العالَم، وهو مع ذٰلك يؤمن بالإلٰه عن دليلٍ.

إذن، إنّ نفي البداية الزمانيَّة للعالـــم، أو القول بقِدمه لا يلازمه انتفاء دور الخالق كما يعتقد بعض الفيزيائيّين.

ب - نفـي الإلٰـه الّـذي تصفـه بعـض الديانـات لا يلازمـه نفـي المبـدإ المجرّد

حاول الكاتب في الفصل الســابع أن يشــكّك في فرضيّــة وجود الإلٰه من خــلال الطعن بما يقدّم من رؤًى ثيولوجيَّةٍ، وتفســيرات بعض الأديان الّتي تؤمن بالإلٰه.. ولٰكن مهلًا! وبغضِّ النّظر عن الأسلوب الّذي حاول من خلاله تهميش فكرة الإلٰه، وتعويم الأســلوب التجريبيّ في الإجابة، لو ســلَّمنا مع هوكينج بــأنّ الإلٰه الّذي تصِفُه بعــض الديانات أو المِلَــل والنِّحَل بـ «غير الواقعيّ»، هل يلزم من ذٰلك عدم وجود صانعٍ لهٰذا الكون؟!

إنّه لا ملازمة عقليَّةً بين نفي الإلٰه الّذي تنظر إليه بعض الديانات، وبين نفي فكرة الإلٰه؛ باعتبــار أنّه ليس بعزيزٍ علينا أن ننفي القراءة الّتي تقدّمها بعض الديانات عن الإلٰه، مع اعتقادنا بالمبدإ الماورائيّ.

وهٰذا ألبرت آينشــتاين (Albert Einstein)(*) كمــا ينقل عنه هوكينج في كتابــه «تاريخٌ موجزٌ للزّمن» كان يرفض الصــور اليهوديّة للإلٰه: «ورغم أنّه (أي أينشــتاين) ينحدر من أصــولٍ يهوديّةٍ، إلّا أنّه كان يرفض الفكرة التوراتيّة عن الله» [هوكينج، تاريخ موجز للزمن، ص 152]. ومع ذٰلك فإنّه من المسلَّم بين العلمــاء أنّه كان يعتقد بوجود الإلٰه؛ قال: «أريد أن أعرف كيف خلق

(*) ألبرت أينشتاين: عالِم كبير في الفيزياء النظريّة، وله اكتشافاتٌ عديدةٌ.

الله العالم؟» [ديفيز، الله والفيزياء الحديثة، ص 37].

جـ- هل يُوجَد شيءٌ من اللاشيء تلقائيًّا؟

يقول هوكينج: «فإنّ الكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء، وسوف يفعل ذٰلك بالطريقة الّتي تمَّ وصفها في الفصل السادس، والخلق التلقائيّ هو السبب في أنّ هناك شيئًا بدلًا من اللا شيء، فلماذا يُوجَد الكون؟ ولماذا نُوجَد نحن؟ ليس من الضروريّ أن نستحضر إلٰهًا لإشعال فتيل الخلق، ولضبط استمرار الكون» [هوكينج، التصميم العظيم، ص37].

في الواقع تمسّ هٰذه المسألة حقيقة كتاب «التصميم العظيم».

في البداية لا بدّ من بيان المراد من اللاّشيء؛ فاللاشيء عند الميتافيزيقيين يعني العَدَم المُطلَق، وأمَّا اللاشيء باصطلاح الطّبيعيين الّذي نرجّح أن يكون هو مراد الكاتب فهو بمعنى الفراغ الكمّيّ(*)؛ قال: «قد تعتقد لوهلةٍ أنّه لو أنزلنا كلَّ الذرَّات والجزئيّات من مكانٍ ما؛ فإنّنا سنخلق فراغًا كاملًا في ذٰلك المكان؛ بحيث إنّه يصلح أن نسمّي ذٰلك المكان بـ«لا شيء».

وقد تسرّع بعض الباحثين عندما حملوا «اللاشيء» على المعنى الفلسفيّ فحسب. [المصري، نهاية حلم وهم الإله، ص 70]

وعلى أيّ حالٍ، فإن أراد من اللاشيء المعنى الفلسفيّ، فقوله واضح البطلان، ببداهة امتناع صدور الوجود من العدم.

وإنْ أراد به «الفراغ الكمّيّ» وهو كذٰلك، فعندها لا بدّ أن نسأل: هل

(*) يمكن أن يكون تعبير الفراغ الكمي مضلّلاً لمن لم يألف المصطلحات الفيزيائيّة؛ وذٰلك لأنَّ كلمة «فراغ» توحي بالعَدَم. ولٰكنَّ الفراغ الكمّيَّ مصطلحٌ يستخدمه الفيزيائيّون؛ للإشارة إلى أقلّ حالةٍ من حالات الطاقة، أو أدناها في حقلٍ كمّيٍّ معيَّنٍ. وهٰذه الحالة طبعًا لا تكون عدمًا. [لينكس، العلم ووجود الله، ص 370، الهامش رقم 33]

الفراغ الكــمّيّ كافٍ في انتفاء الحاجة إلى خالقٍ ماورائيّ؟ كيف يمكن لشيءٍ طاقته صفر أن يفيض هٰذا الوجود كلّه؟!

نطوي كشحًا عن التفاصيل العلميّة الّتي ذكرها الكاتبُ في حقيقة الفراغ الكــمّيّ، ونأخذها كأصلٍ موضوعٍ لنبني عليها؛ إنّ أقصى ما فعله هو إثبات ســبق شيءٍ على العالَم، وهو الفراغ الكمّيّ، وعمل على تفســير آليّة نشــوء الكون، وهٰذا السبقُ والآليّة لا تنفي وجود خالقٍ ماورائيٍّ.. غاية الأمر أنّه بيّن علّةً قريبةً أخرى وقدّم تفسيرًا.

ومــن باب المثال لو فسّر لك الكيميائيُّ كيفيّة خروج هٰذه الورقة الّتي بين يديــك من المصنع، وكيف اختلطت الموادّ الكيميائيّة مع الخشــب، وأثبت لك أنّ هناك شــيئًا ما قد سبقها... هل يغنيك ذٰلك عن سؤال من أحضر هٰذه الورقة؟ ومن خلط مكوّناتها، ودفع بها إليك؟

حتمًا سيكون الجواب لا، ولو بقي يشرح لك الآليّات، ويذكر لك القوانين من الآن إلى يوم الدين لن ينتهي ســؤال «مَن؟» و «لماذا؟» وكلّ ما ذكره الكاتب هو في دائرة «كيف؟».

الفيزيائيّ الشــهير بول ديفيز (Paul Davies)(*) يقول لنا: «أيمكن خلق شيءٍ مــن اللاشيء؟ لقد رأينا إمكانيَّة خلق جســيماتٍ من الفضاء الخالي، لٰكنّ الســبب يعود في هٰذه الحالة إلى اعوجاج الفضــاء(**). ويبقى أمامنا تفسير الســؤال: من أين جاء الفضاء (إن لم يكن موجودًا دائمًا)؟» [ديفيز، الله

(*) بول ديفيز: عالِمٌ بريطانيٌّ، وأســتاذ الفيزيــاء بجامعة أريزونا، عمــل بجامعات كمبريدج، متخصِّــصٌ في علوم الكون وفيزياء الكمّ، حائزٌ على جائــزة تمبلتون عام 1955 م. [راجع: شريف، عمرو، رحلة عقل، ص 90 الهامش رقم 2]

(**) حقل الجاذبيّة اعوجاجٌ فضائي [ديفيز، الله والفيزياء الحديثة، ص 46].

والفيزياء الحديثة، ص 48 و49].

ويقول أيضًا: «فبصرف النظر عن أنّ هٰذه التفاسير تنطوي على قدرٍ كبيرٍ من التخمين، فالقول بنشـــأة الكون من تموّجٍ في فراغٍ كمّيٍّ يرجع بالمسألة الأصل خطـــوةً إلى الوراء، ويجعلنا نتســـاءل عن مصدر الفـــراغ الكمّيّ» [لينكس، العلم ووجود الله، ص 119].

إذن مقولة «فإنّ الكون يمكنه أن يخلقَ نفســـه من لا شيء، إن حملناها على المعنى الفلســـفيّ فهي ممتنعةٌ، وإن حملناها على المعنى الّذي أراده هوكينج فإنّهـــا لا تثبت عدم الحاجة إلى الخالق الماورائيّ، بل ينتقل الســـؤال ذاته إلى مربّعٍ آخر كما عرفت.

وقبل أن ننتقل إلى المناقشـــة العلميّة تحسنُ الإشارة إلى أنّ هوكينج ليس أوّل من تحدّث بهٰذا حول تفســـير نشـــوء الكون، فإنَّ بيـــتر آتكينز (Peter Atkins)(*) يعتقد بشيءٍ مشـــابهٍ، وهو صلاحيّـــة الزمكان لإيجاد مادَّته من خلال التجميع الذاتيّ، وهٰذا القول دفع كيث ورد (Keith Ward)(**) إلى الردِّ عليه بأنّه من المحال تأثير الســـبب في الرتبة اللاحقة، ما لم يكن موجودًا في الرتبة السابقة؟(***) [لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص 111 (بتصّرفٍ)] وعندها يبقى السؤال السيّد: من أوجده؟ ولماذا؟

د- نفي الإله يخدش في علميّة النموذج

أشرنـــا في آخر فقرة «الخلط بين المنهج العقـــليّ والمنهج التجريبيّ» إلى أنّ

(*) بيتر أتكينز: بروفسور الكيمياء في جامعة أكسفورد.

(**) كيث ورد: فيلسوف، وعمل أستاذًا في جامعتي كامبريدج وويلز.

(***) ديفيز، الجائزة الكونيّة الكبرى، ص 100.

نتائــج التجربة مبنيّةٌ على الأخذ بالقوانين العقليّة الثّابتة، وإنّ هٰذه القوانين نفسها تنتج فكرة ضرورة وجود الإلٰه، فكيف يمكن للتجربة أن تخرج بتنبّؤٍ يتعارض مع أحد القوانين الّتي تســتند إليها؟ كقانون العلّيّة مثلًا؟! إنّ هٰذا ليخدش في علميّة النموذج، أو الافتراض الّذي يقدّمه العالم الطبيعيّ.

3ـ النقد العلميّ (مناقشة في بعض المقدّمات الفيزيائيّة)

أ- الزمكان لا يحلُّ المعضِلَة

حاول هوكينج في الفصل الســادس أن ينقــل فرضيّة الزمكان الّتي تجعل الزمان بعدًا رابعًا من أبعاد المكان، وأنّه بدأ مع الانفجار العظيم، ويدّعي أنّ السؤال سيصبح لغوًا عن سبب البداية الأوّل.

إنّ هٰــذا التصريح لا يخلو من تدليــسٍ، أو نقصٍ في دائرة الاطّلاع على أحســن التقادير، باعتبار أنّه بناءً على كلِّ ما تقــدّم من شروع الزمان مع الكون، قد نستنتج أنّ الســؤال العبثيّ هو عن السبب الفيزيائيّ للكون، لا عن السبب مطلقًا! وبالطريقة ذاتها فإنّ التخمين حول الّذي سبّب الانفجار الكبير لا معنى له أيضًا؛ لأنّ الأســباب عادةً تســبق التّأثيرات. فإذا لم يكن هناك زمانٌ (أو مكانٌ) قبل الانفجار الكبير لوجود وســيطٍ مسبّبٍ فيمكننا أن نعزو عدم وجود سببٍ فيزيائيٍّ للانفجار الكبير [ديفيز، الجائزة الكونية الكبرى، ص 100]، عندهــا يتعّين على عالم الفيزياء الســكوت حيال الســبب غير الفيزيائيّ. وُيعطى المنبر إلى المتخصّص في الإجابة على الأسئلة غير الفيزيائيّة المتعلّقة بأمــورٍ لا تخضع للتجربة. قال هوكينج في كتــابٍ آخَرَ له: «إذا كنّا كما هو الحال، نعلم فقط ما حدث منذ الانفجار الكبير ـ فإنّنا لا نســتطيع تحديــد ما حدث قبل ذٰلك، [...] الأســئلة الّتي تدور حــول من الّذي هيّأ

الظروف لهٰذا الانفجار الكبير ليســت بالأسئلة الّتي يتناولها العلم» [هوكنج، تاريخ أكثر إيجازًا للزمن، ص 78]. وفي مورد آخر من الكتاب نفسه: «ويعني ذٰلك أنّ كلّ نظريّاتنا تتحطّم عند لحظة الانفجار الكبير؛ [...] وهٰكذا وحتّى لو كانت هناك أحداثٌ قد وقعت قبل الانفجار الكبير؛ فلن نســتطيع اســتخدامها لتحديد ما يمكن أن يحدث بعد الانفجار، لأنّ التنبّؤ ذاته ســيتحطّم منذ لحظة الانفجار العظيم» [المصدر السابق، ص 76].

إذن، ســواءٌ ثبتت فرضيّة الزمكان أم لم تثبت، فذٰلك لا ينفي الإلٰه، وقد علمنا أنّ الفيزياء مغلولة اليد عن تفسير ما قبل الانفجار العظيم.

ب- القانون سيِّدٌ غير فاعلٍ

يقول هوكينج في كتابه «تاريخٌ مُوجَز للزمن»: «وطالما اعتقدنا أنّ للخلق بدايةً فإنّ دور الخالق يبدو واضحًا هنــا، أمّا إذا كان الكون بالفعل مغلقًا على نفســه (أي مكتفيًا بنفسه بشــكلٍ كاملٍ)، وليس له حدودٌ أو حوافٍ، وليس له بدايةٌ أو نهايةٌ، فإنّ الإجابة ليست واضحةً: ما هو دور الخالق؟!» [المصدر السابق، ص 111].

كان يعتقد بأنّ فكــرة البداية الزمانيّة للكون نفيًــا أو إثباتًا لها ارتباطٌ وثيقٌ في تفسير ظاهرة وجود الخالق على حدّ تعبيره، كما ورد في الترجمة، فإنّه وبحسب تصريحه في كتاب «تاريخٌ مُوجَزٌ للزمن» إذا كان للكون بدايةٌ زمانيَّةٌ فدور الخالق واضــحٌ، وإلّا فدوره غير واضحٍ. وقد نقلنا قوله فيما تقدَّم تحت عنوان «الصبغــة الميتافيزيقيَّة» بأنَّ الكثير ينفرون من فكرة البداية الزمانيَّة للكون؛ لأنّها تدلُّ على التدخّل الإلٰهيّ.

في كتابــه «التصميم العظيم» يبيّن وِجهة نظــره حِيال قضيّة بداية الكون

من خلال فرضيّة الزمكان، ويقترح استنتاجًا يقصي من خلاله فكرة الإله ويستبدلها بـ «اللاشيء» و«قانون الجاذبيَّة»، ويدّعي صلاحيّته لتفسير نشوء الكون من اللاشيء؛ قال: «لأنّ هناك قانونًا مثل الجاذبيَّة، فإنّ الكون قادرٌ وسيخلق نفسه من لا شيء» [هوكينج،التصميم العظيم، ص 352]، متمسّكًا بما سمّاه سيادة القانون وحاكميّته.

ولنا الآن أن نسأل السيّد هوكينج:

ـ ما هو الدليل العلميُّ الّذي قدَّمته على وجود الجاذبيَّة قبل الكون؟

ـ لو سلَّمنا بوجود هٰذا القانون قبل الكون هل هٰذا يحلُّ معضلة «فرضيَّة نفي وجود الإله»؟

ـ ما هو تفسير العلماء لسيادة القانون؟ أيعني ذٰلك تأثيره وفاعليّته؟

على أيّ حال لو سلّمنا بوجود قانون الجاذبيَّة قبل الكون فإنّ ذٰلك لا يحلُّ المعضلة؛ باعتبار أنّ القانون لا يؤثِّر، بل إنّه يفسّر الظاهرة ويوضّحها في ظروفٍ معيَّنةٍ، دون أن يفعل، وكذٰلك لو سلَّمنا وقلنا: إنّ القانون يؤثّر، يبقى السؤال مَن الذي قنَّن هٰذه القوانين وأوجدها؟ كيف جاءت الجاذبيّة؟ ومن الّذي خلقها؟

إنّ القوانين لا تخلق شيئًا؛ يقول الرياضيّ تي جون لينكس: «فقوانين الفيزياء تشرح كيف يشتغل محرِّك الجيب(*)، لٰكنّها لا تشرح كيف جاء إلى الوجود في البداية؛ إذ إنّه من الواضح جدًّا أنّ قوانين الفيزياء ليس بمقدورها خلق محرّك الجيب لوحدها؛ إذ إنَّ تلك المهمّة تحتاج لذكاءٍ وخيالٍ، والإبداع العلميّ لفرانك ويتل(**)» [حسن، أقوى براهين جون لينكس في تنفيد مغالطات منكري

(*) محرّكٌ نفّاثٌ للطائرات.

(**) فرانك ويتل: عالمٌ متخصّصٌ بالميكانيك.

الدين، ص 108].

يقول وليام بيـــلي (Paley William)(*): «إنّه لتَحريـــفٌ للّغة أن تحدّد أيّ قانونٍ على أنّه السبب الكافي الفعّال لأيّ شيءٍ، فالقانون يفترض مسبّقًا وجود عاملٍ؛ فالقانون مجرّد الآليّة الّتي يسير عليها العامل. والقانون يتضمّن قوّةً؛ لأنّه النظام الّذي تعمل تلك القوّة وفقًا له. وبدون هٰذا العامل، وبدون هٰذه القوة، المستقلّين كلاهما عن القانون، لا يفعل القانون شيئًا، فهو لا شيء»(**).

ومن باب المثـــال أنّ القانون القائل «كلّما بلغـــت درجة حرارة الماء 100 درجةٍ يبدأ بالتبخّر» لا يجعل الماء يتبخّر ما لم يكن لدينا في الرتبة السابقة ماءٌ وحرارةٌ، وموجدٌ لهما، وواضعٌ للماء على النار. وكذٰلك قانون 2+2=4، فإنّه لا يضاعف المال، ما لم يتقدّم زيدٌ باستيداع مبلغٍ في البنك.

والمثير أنّ ســـتيفن هوكينج نفسه في كتاب «تاريخٌ موجَزٌ للزمن» كان يؤيّد ما عليه جون لينكس ووليام بيلي؛ قال: «وحتّى إذا كانت هناك نظريّةٌ موحّدةٌ واحدةٌ محتملةٌ فســـتكون مجموعةً من القواعد والمعادلات، فما الّذي يبعث النار في المعادلات، ويصيغ عالمًا تصفه؟» [هوكينج،تاريخ أكثر إيجازًا للزمن، ص153].

والأكـــثر إثارةً ما نقله الدكتور عمرو شريـــف في كتابه «رحلة عقل» من أنّ هوكينج في جلســـةٍ حواريّةٍ أجاب مضطرًّا بأنّ «توصّلنا لمعادلاتٍ تشرح كيـــف بدأ العالَم، لا يعـــني أنّ الإلٰه غير موجودٍ، ولٰكـــن يعني أنّه لم يخلق الكون عشوائيًّا، ولٰكنّه خلق تبعًا لقوانين» [شريف، رحلة عقل، ص 82]! لماذا هٰذا

(*) وليام بيلي: فيلسوفٌ.

(**) Willliam Paley, Natural Theology.

(تمت ترجمة المقطع إلى العربية بواسطة: altab.com).

التهافت في أقواله؟ لعلَّه ضاق ذرعًا بالحجج المقامة على وجود الإلٰه.

إذن وجود الجاذبيّة قبل الكون، وسيادة القانون بمعنى تأثيره وفاعليّته المطلَقة الموجبة للاستغناء عن الإلٰه دَعْوَيَانِ تفتقران إلى دليلٍ.

يقول الفيزيائيّ بول ديفيز: «... مع أنّ العمليَّة الّتي وُصِفت أعلاه ما تقدّم خلقًا من اللاشيء، لٰكنّ مجرّد تحويل طاقةٍ موجودةٍ من قبل إلى شكلٍ مادّيٍّ، وما زال علينا توضيح من أين جاءت هٰذه الطاقة في المقام الأوّل، وهٰذا يتطلَّب بالتأكيد تفسيرًا خارقًا؟» [ديفيز، الله والفيزياء الحديثة، ص 45].

يقول كيث ورد: «إنّ وجود قوانين فيزيائيّةٍ... يعني ضمنًا وجود إلٰهٍ يصيغ هٰذه القوانين ويضمن توافق العالَم المادّيّ معها» [لينكس، العلم ووجود الله، ص 109].

ثمّ إنّ هوكينج وقع فريسة خلطٍ خطيرٍ في المقام، إذ إنّه في قوله: «إنّ نظريّة كلّ شيءٍ ... تتنبّأ بأنَّ العديد من الأكوان العظيمة تكوَّنت من لا شيء، ... إذ إنّ خلقهم لم يحتج إلى تدخُّل قوّةٍ خارقةٍ، أو إلٰهٍ يكشف عن أنّه لم يفرِّق بين «العامل» و «القانون»، فإنّ التخيير بين الإلٰه والقوانين الفيزيائيّة خاطئٌ بامتيازٍ، ولا يخلو من الخلط أو المغالطة، فالإلٰه تفسيرٌ للكون وكذٰلك القوانين الفيزيائيّة، إلّا أنّهما تفسيران من نوعين متغايرين، ولا تعارض بينهما.

وهٰكذا، نكون أمام رأيين في المسألة: الأوّل يجعل القانون فاعلًا، والآخر لا يرى للقانون دورًا إلّا التفسير، ولو سلّمنا بأنّ للقانون تأثيرًا، يبقى السؤال مَن الّذي جعله؟!

جـ- هل أجاب العلم على الأسئلة الكونيّة الكبرى؟

أقحم هوكينج نفسه في ميدان الإجابة على الأسئلة الكونيّة الكبرى، معتقدًا

أنّ العلـــم التجريبيّ الحديث وخصوصًا الفيزياء الحديثة مع هٰذا التقدّم المهول لديها ما تقوله في هٰذه القضايا، يقول الســـيّد هوكينـــج: «وأضحى العلماء هم من يحملون مصابيح الاكتشـــاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة. يهدف هٰذا الكتاب إلى تقديم الإجابات (على الأسئلة الوجوديّة) الّتي تفرضها الاكتشافات العصريّة، والنظريّات العلميَّة الحديثة» [هوكينج، التصميم العظيم، ص 13].

إلّا أنّ للفزيائيّ الأشـــهر بول ديفيز رأيًا مغايرًا: «ورغم النجاح المذهل للعلم الحديث، فمن الغباء أن نفترض أنَّ الأســـئلة الأساسيَّة المتعلِّقة بوجود الإلٰه، أو الغرض من الكون، وكذٰلك دور البشر في هٰذا المشروع الخارق، قد تمّت الإجابة عليها، بفضل هٰذه التطوّرات العلميَّة. إنّ لدى العلماء أنفســـهم ـ في الواقع ـ نطاقًا واسعًا من المعتقدات الدينيَّة» [ديفيز، الله والفيزياء الحديثة، ص 255].

وللفيزيـــائيّ الحائز على جائزة نوبـــل في الفيزياء ماكـــس بلانك (Max Planck)(*) رأيٌ مغايرٌ لما ذهب إليه الكاتب: «العلم الطبيعّي لا يستطيع حلَّ اللغز المطلق للطبيعة؛ وذٰلك لأنَّه في التحليل الأخير نكون نحن أنفسنا جزءًا مـــن الطبيعة، وبالتالي نكون جزءًا من اللغـــز الّذي نحاول حلَّه» [حسن، أقوى براهين جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، ص 64].

وعلى أيّ حالٍ فإنّ أصل ما يدّعيـــه هوكينج وينطلق منه في بحثه هو محلُّ نظرٍ وجدلٍ كبيرٍ بين أرباب أهل الاختصاص.

وبناءً عليه، نرجع مع الكاتب إلى أولى صفحات كتابه لنسأله: هل للعلم إجاباتٌ تامَّةٌ على هٰذه الأســـئلة؟! ثمّ هل كان في اســـتنتاجاته وفرضيّاته الّتي

(*) بلانك، ماكس: عالمٌ عبقريٌّ، فاز بجائزة نوبل للفيزياء عام 1918، وهو أحد أشهر مؤسِّسي ميكانيكا الكمّ.

يطرحها ويرشّحها فيزيائيًّا أو متفلسفًا مادّيًّا؟

هل يريد السيّد هوكينج أن يجعل البشر يبنون مواقفهم حول محاور الكون على ركامٍ من التخمينـــات الفيزيائيَّة، وبالتالي تعيش الأمم في واقع من الهلع الفكريّ الّذي يستتبعه تخبّطٌ في الجانب العلميّ؟!

د- الأكوان المتعدّدة نظريّةٌ أم تخمينٌ؟

يُعدّ نموذج الأكوان المتعدّدة ـ الّذي تمسَّـــك به هوكينج في كتابه لتفسير النظم الدقيق للكون ـ الملجـــأ الأخير، ولعلَّه الملاذ الوحيد المتبقّي للملحد، وهٰذا ما يخبرنا به نيل مانسون (Neil Manson)(*) : «هي الملاذ الأخير بالنسبة للملحد اليائس» [نقلًا عن: ديفيز، الجائزة الكونيّة الكبرى، ص 354].

فهل هٰذه نظريَّةٌ علميَّةٌ متّسقةٌ وجميلةٌ(**) أو أنَّها مجرّد تخمينٍ وافتراضٍ؟

تفرض الأكـــوان المتعدِّدة(***) كمًّا هائلًا من الأكـــوان الّتي يتعذّر على الإنســـان ملاحظة أكثرها، كما أنَّها تفتقر للاختبـــار، ومع ذٰلك لا تعطي تفسيرًا تامًّا للوجود.

وإليك ـ أيُّها القارئ ـ ما يقوله عالم الفيزياء بود ديفيز: «إنّ عيب نظريّة الكون المتعدِّد هـــو أنَّها تقحم فيضًا من الكيانـــات الّتي لا يمكن ملاحظة

(*) نيل مانسون: بروفسور في الفلسفة.

(**) يقـــرُّ علماء الرؤيـــة العلميّة الجديدة بأنَّ الجمال في النمـــوذج، أو النظريّة المقترحة يُعدّ من مقوِّمات نجاحه، ويعنون بالجمال التناسق والبساطة وعدم التعقيد. [انظر: العلم في منظوره الجديد، أغروس وستانسيو، ص 44]

(***) الأكـــوان المتعدِّدة أو الكون المتعدِّد: فرضيّةٌ تُطرَح في الفيزياء، مفادها أنَّ الانفجار الكبير الّذي ولّد كوننـــا هو واحدٌ من عدد، رُبَّما لا نهائي من الانفجارات الّتي ولَّدت أكوانًا متعدِّدةً. [انظر: ديفيز، الجائزة الكونيّة الكبرى، ص 352]

معظمها مطلقًا، ولو من حيث المبدأ. ويصدم هٰذا الانتشـــار الكاسح العديد من الناس على أنّه طريقةٌ مبالغٌ فيها لتفســـير صداقـــة الكون للحياة. ومن الصعب جدًّا أيضًا اختبار هٰذه النظريّة... ولا يقدّم الكون المتعدِّد وصفًا كاملًا للوجود؛ لأنَّه لا يزال يتطلّب الكثير من الفيزياء غير المفسّرة و"الملائمة" جدًّا لإنجاحه» [ديفيز، الجائزة الكونيّة الكبرى، ص 353].

وفي تصريحٍ مثيرٍ لجون بولينج هـــورن (أحد أبرز منظِّري الكمّ) يرفض فيه فرضيَّة الأكوان المتعدِّدة: «علينا أن نعـــترف بحقيقة هٰذه التخمينات. فهي في الحقيقة ليســـت فيزيـــاء، بل ميتافيزيقيا بالمعـــنى الأضيق. فما من ســـببٍ علميٍّ محضٍ يدعونا للاعتقاد بمجموعةٍ من الأكوان. فهٰذه العوالم بطبيعة تكوينها غير معروفةٍ لنا. أمّا التفســـير الّذي يحظى بنفس القدر من الاحترام الفكريّ، ويراه عقلي مفهومًا ومنظَّمًـــا هو أنّ هٰذا العالَم الواحد على هٰذه الشـــاكلة؛ لأنّه مخلوقٌ بـــإرادة خالقٍ قصـــد له أن يكون هٰكذا» [لينكس، العلم ووجود الله، ص 129 و130].

إنّ هٰـــذه الفرضيّة علاوةً على كونها مجرّد تخمينٍ غير مجرّبٍ، بل لا يمكن للإنسان اختباره... هي افتراضٌ غير جميلٍ أبدًا، وكما يقول ريتشارد سينبرن (Richard Swinburne)(*): «إنّ افـــتراض تريليونـــاتٍ من الأكوان الأخرى بدلًا من إلٰهٍ واحدٍ لتفســـير النظام الّذي يميِّز كوننا يبـــدو قمَّة اللامنطقيَّة» [لينكس، العلم ووجود الله، ص 130].

حتّى أنَّ صاحب كتاب «وهم الإلٰه» الأحيائيّ المُلحِد ريتشارد دوكينز يصف هٰذه الفرضيَّة بأنّها غايةٌ في التبذير: «العالَم المتعدّد الأكوان يبدو نظريّةً في غاية

(*) ريتشارد سوينبر: فيلسوفٌ وأستاذٌ في جامعة أكسفورد.

التبذير من ناحية عدد الأكوان» [دوكنز، وهم الإله، ص 149].

إذن، الأكوان الّتي حـــاول هوكينج أن يبيِّنها كنظريَّةٍ لتفســـير الضبط الدقيـــق، هي محض فرضيَّةٍ وتخمينٍ لم يُقِم عليها الدليل، ولا نعلم على الأقلّ إن كان له قابليّة ذٰلك.

هـ- تصميمٌ عظيمٌ أم مصمِّمٌ أعظم؟

تقدَّمت الإشـــارة إلى أنّ القضايا الميتافيزيقيَّة خارجـــةٌ عن دائرة العلوم الطبيعيَّة ونطاقها، ومع هٰذا فنحن الآن نطالع آراء الطبيعيّين الذين يعتقدون بـــأنّ للعلم صلاحيَّة ذٰلك، فما هي وجهة العلـــوم الحديثة؟ أتتّجه نحو تعزيز فكرة الإله والمصمِّم الأعظم، أم نحو تأييد الإلحاد وفرضيَّة التصميم العظيم؟

ينقســـم العلماء الطبيعيُّون في الإجابة على هٰذا الســـؤال انقسامًا حادًّا، فمنهم مَن يؤيِّد الأوّل، ومنهم مَن يؤيِّد الثاني (كالمؤلِّف)، ومنهم المتوقِّف.

يدّعي روبرت أغروس (Robert Augros) (*)، وجورج ستانسيو (Geroge Stanciu)(**) ـ في كتابهمـــا «العلم في منظوره الجديـــد» ـ أنَّ العلم بنظرته الحديثة يعضد الموقـــف الأوّل: «وهٰكذا ففي النظرة العلميّة الجديدة نجد أنَّ أصـــل الكون، وبنيته وجماله تفضي جميعًا إلى النتيجة نفســـها، وهي أنَّ الله موجود» [أغروس، العلم في منظوره الجديد، ص 72].

(*) أغروس: حائزٌ على درجة دكتوراه في الفلســـفة من جامعة لافال بكندا، ويعمل حاليًّا أستاذًا للفلسفة في جامعة سانت أنسليم. [العلم في منظوره الجديد، ص 159]

(**) ستانســـيو: حائزٌ على درجة الدكتـــوراه في الفيزياء النظريَّة من جامعة ميشـــيغن بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، ويرأس في الوقت الراهن قسمي العلوم والرياضيّات في ماجدلين كوليج. [العلم في منظوره الجديد، ص 159]

كذٰلك يقول بول ديفيز: «لقد بدأتُ بطرح الادّعاء بأنّ العلم يوفِّر سبيلًا مؤكَّدًا للسعي إلى الإلٰه، أكثر من الدِّين» [ديفيز، الله والفيزياء الحديثة، ص 268].

ويقول آلن ساندیج (Allan Sandage)(*): «أرى أنَّه من المستبعَد أن يكون نظامٌ كهٰذا نشأ من الفوضى. لا بدَّ من وجود مبدإٍ منظِّمٍ. والله بالنسبة لي سرٌّ عميقٌ غامضٌ، ولٰكنَّه معجزة الوجود، وهو إجابةٌ لسؤال لماذا يُوجد شيءٌ بدلًا من العدم ؟» [لينكس، العلم ووجود الله، ص 114].

نعود قبل أن نختم الاستنتاج الّذي استفدناه من بعض عبارات هوكينج، وهو «كلَّما تطوَّر العلم واستطاع أن يفسِّر الظواهر كلَّما قلَّت، أو انتفت الحاجة إلى الإلٰه»(**).

في الواقع أنَّ هٰذه الدعوى لا يوافق عليها بعض الطبيعيّين، بل أكثر العلماء بحسب جون لينكس [حسن، أقوى براهين جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، ص 79]، وهي ناتجةٌ عن عدم الإحاطة الكافية في «نظريّة المعرفة» الّتي صدّرنا الحديث عنها؛ لذا لا نعيد، ونكتفي بالإشارة فنقول: إذا كان العلم التجريبيّ معنيًّا بالظواهر الحسيَّة القابلة للمشاهدة والملاحظة والتجربة، وكفيلًا بتكييف هٰذه الظواهر، وتفسيرها وبيان عللها القريبة، فكيف يمكنه أن يقضي ويبتَّ في الظواهر الميتافيزيقيَّة، والعِلل البعيدة، والمبدإ والغاية؟! مع كونها مسائل لا يَطالُها الحِسُّ والتجربة فحسب، بل لا قابليّة لهما لاستيعابها.

(*) آلن ساندیج، يُعَدُّ من مؤسِّسي علم الفَلَك الحديث، ومكتشف أشباه النجوم، وهو حائزٌ على جائزة كرافورد الّتي تعادل جائزة نوبل في علم الفلك.

(**) وهٰذا في الواقع يرجع إلى المفهوم الخاطئ الّذي يتبنّاه هوكينج عن الإلٰه ، وهو «إلٰه الفجوات» .. وعلى أحسن التقادير فإنَّ هوكينج في الواقع ـ بناءً على هٰذا ـ لا يريد نفي الإلٰه ، بل يريد نفي إلٰه الفجوات، أي: تصوّره عن الإلٰه.

لقد وصل الحال بدعاة الإلحاد المعاصر إلى هٰذا المستوى في نظرتهم عن الكون، ناهيك عن آرائهم حول الإنسان الّذي يشكّل عنصرًا من عناصر الرؤية الكونيَّة، حيث يصفه ستيفن بـ«الحثالة الكيميائيّة» [حسن، أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدِّين، ص 80].

الخاتمة

بعد هٰذا الشوط المختَصَر، وقبل أن نترك القارئ الكريم، أرى من الجيِّد لمَّ البحث، والأخذ بأطرافه، لتتجلَّى النتائج والخلاصات الّتي خرجنا بها.

بدأ البحث من تصنيف الكتاب ـ المُستَهدَف بالقراءة النقديَّة ـ بأنَّه من كتب الإلحاد؛ بدافع علوم الطبيعيّات (الفيزياء)، ثمّ طرحنا السؤال الأساس: هل استطاع هوكينج نفي الإلٰه من خلال آلته العلميّة؟

وبعد جولةٍ خاطفةٍ على الكتاب بفصوله الثمانية، وتسليط الضوء على المفاصل الأساسيَّة الّتي تشكّل موضوعًا للنقد، وصلنا إلى القراءة النقديَّة، إذ تناولنا النقاش من زوايا ثلاثٍ:

ـ من زاوية علم المعرفة.

ـ من زاوية علم الفلسفة.

ـ من زاوية علم الفيزياء.

أمّا من زاوية علم المعرفة فقد بيَّنا الخلط الفادح بين نطاق العقل ونطاق التجربة، والّذي يفضي إلى نتائج خطيرةٍ كما رأينا، بعد ذٰلك وضّحنا كيف شدَّ الكاتب بطرف البحث إلى ساحة الفيزياء بزعم موت الفلسفة، ثُمَّ

عرضنا لفكرةٍ مفادها أنَّ الطبيعيَّ سواءٌ شاء أم أبى يصطبغ بصبغةٍ فلسفيَّةٍ ميتافيزيقيَّةٍ، تنعكس على ميدان استنتاجاته وفرضيّاته المُقترَحَة.

ومن زاوية علم الفلسفة، ناقشنا بعض الملازمات والاستنتاجات من قبيل أنَّ نفي البداية الزمانيَّة للكون لا يلازمها نفي الخالق، كما أنَّ نفي الإلٰه الّذي تقترحه بعض الديانات لا يلازمه أيضًا نفي المبدإ المُوجِد والمصمِّم الأعظم.

ثمّ ناقشنا الكاتب في مسألة وجود الكون من اللاشيء بمعناه الفلسفيّ والطبيعيّ، وخرجنا بنتيجة عدم إباء نفي القوّة الماورائيَّة المُوجِدة، وأشرنا إلى أنَّ نفيها يخدش في عمليَّة النموذج المطروح.

وأخيرًا من زاوية علم الفيزياء، إذ بيَّنّا أنَّ الزَّمكان لا يحلُّ المعضلة، ونقلنا عبارات أعلام الفيزياء الحديثة، وغيرهم من العلماء الّتي تفيد بأنَّ القانون سيِّدٌ غير فاعلٍ، وبالتالي قول هوكينج بأنَّ قوّة الجاذبيَّة هي الّتي تفسِّر وجود الكون من اللاشيء لا ينهض بمُدَّعاه، كما أنَّ استنتاجه نفي الخالق هي دعوى، قام الدليل العقليُّ على خلافها، ورفضها العلماء الطبيعيُّون.

ثمّ عرَّجنا على قول هوكينج الّذي افتتح به كتابه بأنَّ العلم يجيب على الأسئلة الكونيَّة الكبرى ونقلنا آراء علماء فيزياء آخرين، يعتقدون بأنَّ القول بذٰلك ضربٌ من ضروب الغباء!

بعد ذٰلك وضَّحنا أنَّ الأكوان المتعدِّدة الّتي يعتبرها الكاتب مفسِّرًا للتصميم الدقيق ما هي إلّا فرضيَّةٌ وتخمينٌ لا يوافق عليها العديد من العلماء، ومنهم الفيزيائيّون.

وفي النهاية أشرنا إلى أنَّ العلماء الطبيعيِّين منقسمون إزاء موقفهم من

الإلٰه، ولعلَّ مرجع ذٰلك الرؤية الفلسفيَّة لكلٍّ واحدٍ منهم.

وعلى أيِّ حـــالٍ فإنّ بعض كبار الفيزيائيِّين الوازنين قد ذكروا أنَّ العلم في منظوره الجديد يتَّجه نحو الإلٰه، بخلاف أولٰئك الّذين يســـعون في إيجاد مانعة جمعٍ بينه وبين العلم.

أهمُّ النتائج

لقد كان للعالِم الفيزيائيّ هوكينج فكرتان أساسيَّتان:

الأولى: تفســـير حدوث الكون، وهو في الواقع أمام فرضيَّتين إحداهما: وجـــود قوّةٍ ماورائيَّةٍ دفعت هٰذا الكون من العدم إلى حيِّز الوجود، وثانيتهما: الوجود التلقائيّ من اللاشيء بفاعل الجاذبيَّة.

الثانية: تفســـير التصميم الدقيق، وهو كذٰلك يواجه تفســـير فرضيَّتين إحداهما: وجود القوّة الماورائيَّة المبدعيَّة، وثانيتهما: تعدُّد الأكوان.

وقد ثبت للقارئ الكريم من خلال كلِّ هٰذا العرض عدم إمكان الاعتماد على الفرضيَّة الثانية من كلِّ فكرةٍ في مقام اتّخاذ موقفٍ فكريٍّ أو رأيٍ كونيٍّ.

وذٰلك لأنَّها مجرَّد فرضيَّةٍ، وكما ذُكر في علم المنطق ليست من الوجدانيّات، أو الأوَّليّات، أو التجريبيَّات، أو الحسّيَّات، بل هي مجرَّد تخميناتٍ.

رغـــم العناوين العلميَّة والبرّاقة الّتي يخلعها بعض العلماء الطبيعيّون على مؤلّفاتهم، إلّا أنَّهم دائمًا ما يواجهون الفشـــل في إثبات مدَّعاهم «الاستغناء عن الإلٰه»؛ لأنَّه وببســـاطةٍ الآلة الّتي يتوسّلون بها لا تقدِّم تفسيرًا صحيحًا لأسئلة الكون الكبرى.

إلى هنـــا بتوفيقٍ من الله تعـــالى نكون قد أمطنا اللثـــام عن جانب من مغالطات «التصميم العظيم» ومصادراته، والحمد لله ربّ العالَمين.

قائمة المصادر

1. الأحمدي، قاســـم، وجود العالم بعد العدم عند الإمامية، انتشـــارات مولود الكعبة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط 1ـ 1422 هـ.
2. أغروس، روبرت و...، العلم في منظوره الجديد، ترجمة: كمال خلايلي، عالم المعرفة.
3. حسن، أحمد، أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، الدار العربية للطباعة والنشر، الرياض ـ المملكة العربية الســـعودية، ط1ـ 1437 هـ.
4. دوكنز، ريتشارد، وهم الإله، ترجمة: بسام البغدادي، 2009 م.
5. ديفيز، بول، الجائزة الكونية الكبرى: لماذا الكون مناسب للحياة؟، ترجمة: سعيد الدين خرفان، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م.
6. ديفيز، بول، القوى الأربع الأساسية في الكون: البحث عن النظرية الموحدة الكبرى، ترجمة: هاشم أحمد محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1 ـ 2002 م.
7. ديفيز، بـــول، الله والفيزياء الحديثة، ترجمة: هالة العوري، صفحات للنشر والتوزيع، سوريا ـ دمشق، الإصدار الأول ـ 2013 م.
8. شريـــف، عمرو، رحلة عقل: هكذا يقود العلـــم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4 ـ 2011 م.
9. لينكـــس، جون، العلم ووجـــود الله: هل قتل العلم الإيمـــان بوجود الله؟، ترجمة: ماريانا كتكوت.
10. المصري، أيمن، أصول المعرفة والمنهج العقلي، المركز الثقافي العربي.
11. المصري، أيمن، نهاية حلم وهم الإله، مؤسســـة الدليل للدراسات والبحوث العقدية،

ط 1 ـ 2017 م.

12. هوكينج، ستيفن و... تاريخ أكثر إيجازا للزمن، ترجمة: أحمد السماحي، وفتح الله الشيخ، دار العين للنشر.

13. هوكينج، ستيفن و...، التصميم العظيم: إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ط 1ـ 2013 م.

14. هوكينج، ستيفن، تاريخ موجز للزمن: من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي.